علامات الافتقار إلى الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن التميمي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين




شبكة
الألوكة





علامات

الافتقار إلى اللّه تعالى

إبراهيم الدميجي





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام والبركة على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، أما بعد، فإنّ العطايا ليست بالدعاوى، فلكل دعوى صحيحة برهان صحيح، وما كلّ من ادّعى افتقارًا محمودًا صادق في دعواه، فعبادات القلوب هي محكّات البراهين ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ [القيامة: ١٤] وللافتقار المحمود الصادق علامات[١]، منها:

الأولى: تحقيق العبودية لله سبحانه:

فالمؤمن يُسلِم نفسه لربه منكسرًا بين يديه، متذللًا لعظمته، مقدمًا حبه سبحانه على كل حب. فالعبادة هي «الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة»[٢].

ومن كانت هذه حالُه، وجدته وقّافًا عند حدود الله، مقبلًا على طاعته، ملتزمًا بأمره ونهيه، فثمرة الذل أن لا يتقدم بين يدي الله وسوله مهتديًا بقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾، وقوله: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾.

---

(١) الافتقار إلى الله لُبُ العبودية، أحمد الصويان (٢١ - ٦٣) وبعض هذه العلامات ملخّصةٌ منه.

(٢) تفسير الطبري (١/١٥٥).





ثانيًا: شكر الله وحمده:

فليقينه بأن لا رافع لفاقته إلا الله، ولا غنىً إلا من الله؛ فهو دائم الشكر له، متقلبًا في رياض الشكر، لا ينفك شاكرًا نِعَمَهُ وشاكرًا دفع نِقمه، وشاكرًا العافية في دينه ودنياه، وشاكرًا توفيقه للشكر الذي لولا فضل الشكور سبحانه لما وُفِّقَ عبده لشُكرانه. ممتثلًا مدائح الخليل الكريم ﷺ: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه﴾، سائلًا ربه المزيد من فضله والمزيد من توفيقه لشكره لعلمه بغنى ربه وسعة رحمته وعميم فضله ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليما﴾ [النساء: ١٤٧] مازجًا شكره بصبره وصبره بشكره، قد أعدّ لكل نعمة شكرًا ولكل بليّة صبرًا كما قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن أن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له»[٣].

ملازمًا الذكر بشكر وحمد وثناء، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر.

---

(٣) مسلم (٢٩٩٩).



فقد أدى شكر ذلك اليوم»[٤].

حافظًا وصيّة رسول الله ﷺ وكنزه، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «إذا اكتنز الناس الدنانير والدراهم، فاكتنز هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك. وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[٥].

وعن وهب بن منبه، قال: «قال داود: يا رب ابن آدم ليس منه شعرة إلا تحتها منك نعمة، وفوقها منك نعمة، فمن أين يكافيك بما أعطيته؟ قال: فأوحى الله إليه: «يا داود إني أعطي الكثير وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك لي أن يعلم أن ما به من نعمة مني»[٦].

وعن طلحة، قال: «قيل من الذي يسمن في الخصب والجدب، ومن الذي يهزل في الخصب والجدب، ومن الذي هو أحلى من العسل ولا ينقطع؟ قال: أما الذي يسمن في الخصب والجدب، فالمؤمن الذي إن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وأما الذي يهزل في الخصب والجدب،

---

(٤) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (٧/ ٣٨٩) وحسنه المحقق حسين أسد. وانظر: جامع الأصول (٤/ ٢٤٥، ٢٥٢).

(٥) رواه أحمد (٩٤٠٧) بسند حسن. وللحافظ ابن رجب رسالة لطيفة في شرحه.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٧٢).



فالكافر أو الفاجر إن أعطي لم يشكر، وإن ابتلي لم يصبر، وأما الذي هو أحلى من العسل ولا ينقطع فهي ألفة الله التي ألف بين قلوب المؤمنين»[٧].

والمؤمن المفتقر لربه مسارع لشكر من أسداه معروفًا من الناس حتى لا يبقى في قلبه لغير الله تعلق، ويعلم أن الله هو من يسر على أيديهم تلك النعمة والمعروف، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يَشْكُرُ اللهَ من لا يَشْكُرُ النَّاس»[٨].

ثالثًا: دوام ذكر ربه تعالى:

فلا يطمئن قلبه إلا بذكر ربه ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨] «ومن فُتح له فيه؛ فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل، فليتطهّر وليدخل على ربه عز وجل؛ يجد عنده كل ما يريد، فإن وجد ربه عز وجل؛ وجد كل شيء، وإن فاته ربه عز وجل؛ فاته كل شيء.

وفي القلب خلّة وفاقه لا يسدها شيء البته إلا ذكر الله عز وجل، فإذا صار شعار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة واللسان تبع



---

(٧) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٥١١).

(٨) سنن أبي داود (٤٨١١) وصححه الأرناؤوط.



له فهذا هو الذكر الذي يسدّ الخلّة ويغني الفاقة، فيكون صاحبه غنيًّا بلا مال، عزيزًا بلا عشيرة، مهيبًا بلا سلطان.

فإذا كان غافلا عن ذكر الله عز وجل؛ فهو بضد ذلك، فقير مع كثرة جِدَتِه، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته»(٩).

رابعًا: التواضع للحق والخلق:

فلا يردُّ حقًّا استبان له ولا يبطره، ولا يحتقر مخلوقًا حتى وإن رأت نفسه القاصرة فضلًا لها عليه، فالعبرة بالمخابر أولًا لا المظاهر، ثم بالخواتيم، وما أدراك ما الخواتيم!

وكيف للمفتقر لربه أن يرى لنفسه علوًّا في الأرض وهو يُرتل قول الحق الكبير المتعال: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾ [القصص: ٨٣] ويسمع قول رسول الهدى ﷺ واصفًا عظمة ربه سبحانه: «**قال اللهُ تبارك وتعالى: الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازَعَني واحِدًا منهما قذفتُه في النَّارِ**»(١٠).

---

(٩) الوابل الصيب لابن القيم (١٣٨ - ١٣٨).

(١٠) رواه أبو داود أبي داود (٦/ ١٨٩) وصححه الأرنؤوط، ورواه أحمد (٧٣٨٢) وهو في "الزهد" لهناد (٨٢٥)، وأخرجه ابن ماجه (٤١٧٤).



خامسًا: النزوع للتوبة والاستغفار، وعدم الإصرار على الخطايا:

المفتقر لربه تعالى يمتثل أمره إذ قال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون﴾، منتظراً منشور البشارة ومرقوم الفرح في قول الرحيم التواب الغفور: ﴿يا أيها الذين أمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ [التحريم: ٨].

والعبد الصالح إذا زلّت به القدم ـ ولا بد له من ذلك فكل بني آدم خطّاء ـ اتّصف بصفتين متلازمتين:

الأولى: سرعة الندم والرجوع إلى الله. كما قال الله تعالى في وصف عباده: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والثانية: عدم الاستهانة بالمعاصي. فلا يقترب من كبيرة ولا يصر على صغيرة مهما صغّرتها نفسه الأمّارة، بين عينيه قول رسوله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات

الذنوب متى يؤخذ بها صاحبُها تهلكه»[11].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا»[12] قال بن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب المؤمن منوّر، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينوّر به قلبه عظم الأمر عليه. والحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه، بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص فلا ينجو منه عادة.

وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوّة ما عنده من الإيمان، فلا يأمن العقوبة بسببها، وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة، يستصغر عمله الصالح، ويخشى من صغير عمله السيء.

وقوله: «وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب» أي ذنبه سهلٌ عنده، لا يعتقد أنه يحصل له بسببه كبير ضرر، كما أن ضرر الذباب عنده سهل، وكذا دفعه عنه.

قال المحب الطبري: «إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته، لأنه على يقين من الذنب، وليس على يقين من المغفرة.



(11) أحمد (22808) وصححه الأرناؤوط.

(12) البخاري (6308).





والفاجر قليل المعرفة بالله، فلذلك قلّ خوفه واستهان بالمعصية». وقال بن أبي جمرة: السبب في ذلك: «أن قلب الفاجر مظلم، فوقوع الذنب خفيف عنده، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وُعِظ يقول: هذا سهل»[١٣].

فالمؤمن يحذر الآخرة ويخشى ثمار ذنوبه إن لم يسبغ عليه ربه رحمته وغفرانه، «ففي قلبه نار تلتهب، وفي كبده صدع لا ينشعب»[١٤] ينتقل من منزل توبة لمنزل أخرى، ومن توبة عامة لخاصة، ومن خاصة لعامة، فهو تواب مستغفر مسترحم، للتواب الغفور الرحيم.

---

(١٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٥).

(١٤) إحياء علوم الدين (٤/٤).



سادسًا: الزهد في حطام الفانية، والمنافسة في نعيم الباقية:

فالمفتقر إلى ربه يعلم أن هناك دارًا قد ارتضاها الله لخُلّص عباده، وأن هذه الدنيا يعطيها من يحب ومن لا يحب، أما تلك النفيسة فلا يعطيها إلا أحبابه وأولياءه، فهو يمتثل بقلبه قول ربه تبارك وتعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ومنا الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [الحديد: ٢٠].

فمن أوصاف المفتقر إلى الله: «أنه المتخلي من الدنيا تظرّفًا(١٥)، والمتجافي عنها تعفّفًا، لا يستغني بها تكثّرًا، ولا يستكثر منها تملّكًا. وإن كان مالكًا لها بهذا الشرط لم تضرّه، بل هو فقيرٌ غناه في فقره، وغنيٌّ فقره في غناه(١٦).

وسئل الإمام أحمد: هل يكون لدى الرجل مئة ألف ويكون زاهدًا في الدنيا؟ فقال: «نعم، إذا كانت في يده لا في قلبه».

سابعًا: محبة الخلوة بربة ونجواه والأنس به:



(١٥) أي: ما زاد منها عن حاجته.

(١٦) طريق الهجرتين (١/١٠٥).



فهو بالله ولله وفي الله، يعلم أن الخلائق حُجُبٌ عن ربه إلا ما كان لله وفي الله. فهو دائم اللهج بذكر ربه بقلبه قبل لسانه، لا يكاد ينفك عن مناجاته والأنس به والتلذذ بالتقرب إليه بالصالحات، يسابق عمره بعمله، وبذكره أنفاسه، ويبادر أجله بالاستعداد لما بعده، ويملأ صدره بالسرور والفرح والغبطة بأن خصّه الله بمعرفته والأنس به، ويسأل الله المزيد من جوده وإحسانه.





ثامنًا: التعلّق بالله تعالى وبمحبوباته:

فلا ينقطع حبل صلته بربّه، فنياط فؤاده قد عُلّقت في الملأ الأعلى، فهو مع الناس بجسمه ومع الملائكة المسبحين بروحه، قد ارتفعت روحه من ثَقْلَةِ الطين وجذب الجسد لنور الملأ الأعلى، فروحه تجول بين السماوات مسبحة حامدة مصلية شاكرة. يعلم أنه في الدنيا للمهلة، وفي ساعاتها للابتلاء، موقن بوعد ربه للمتقين أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهو في فرح بفضل الله ورجاء لما في يديه من فضله، وخوف وإشفاق من ذنوبه وسيئاته. ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] نسأل الله الكريم من فضله(١٧).

قال بعض الصالحين: «مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب»(١٨) والمؤمن لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهو برٌّ متعلق بالبرّ الحق سبحانه يبحث عن البرِّ في مظانّه: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب

(١٧) وقد سبق الكلام عن الأنس بالله والتعلق به في كتب مستقلة.

(١٨) شذرات الذهب (٢/٣٢٦).





وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..** » وذكر منهم: «**رجل معلّق قلبه بالمساجد**»(١٩) قال الحافظ ابن حجر: «إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجًا عنه»(٢٠).

تاسعًا: الوجل من عدم قبول العمل:

فهو مع اجتهاده مشفق من رد أعماله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا ابنة الصدّيق، ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدّقون، وهم يخافون أن لا يُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»(٢١).

وحينما احتضرت رضي الله عنها عادها ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١٩) البخاري (٢/١٤٣) ومسلم (٦٦٠).

(٢٠) الفتح (٢/١٤٥).

(٢١) أحمد (٢٥٢٦٣) والترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩٨) وصححه الألباني في السلسلة (١٦٢).





وبشّرها بصالح أعمالها فقالت: «دعني منك يا ابن عباس، والذي نفسي بيده لوددتُ أني كنت نسيًا منسيّا»(٢٢). وهذا لعظمة علمها بالله تعالى وخشيتها وورعها وتواضعها، وإلا فهي تعلم أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

قال الحافظ ابن حجر معلّقًا على قولها: «هو على عادة أهل الورع في شدّة الخوف على أنفسهم»(٢٣).

وتتأكد حقيقة الوجل من رد الأعمال بأربعة أمور:

الأول: أن الله عز وجل غني عن طاعات العباد.

قال تعالى: ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ وقال سبحانه: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾ وقال سبحانه: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ [النمل: ٤٠]

الثاني: أن القبول هو محض فضل الله ورحمته.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «والله لا أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي

(٢٢) أحمد (٢٤٩٦) وقوى إسناده المحقق، ورواه مختصرًا البخاري (٤٧٥٣).
(٢٣) فتح الباري (٨/ ٤٨٤).





ولا بكم»[24].

فإذا كان هذا حال سيد ولد آدم ﷺ، فكيف بغيره من الناس؟!

وقال ﷺ: «لن يُنجي أحدًا منكم عملُه» قالوا: ولا انت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»[25].

وقد كان الصحابة يخشون على أنفسهم النفاق. قال الجعد أبو عثمان: قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركت من أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق؟ قال: «نعم، إني بحمد الله قد أدركت منهم صدرًا حسنًا، نعم شديدًا، نعم شديدًا»[26].

الثالث: أن المنّة لله جميعًا.

قال تعالى: ﴿يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ [الحجرات: ١٧].

وفي الحديث الربّاني قال الله تعالى: «يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدِكم»[27].

---

(٢٤) البخاري (٧٠١٨) والمراد: أي على التفصيل له، أما الإجمال بالنجاة والسعادة فقطعي له، ولبعض من علِم من أمته.

(٢٥) البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦).

(٢٦) أبو نعيم في الحلية (٢/٣٠٧).

(٢٧) مسلم (٢٥٧٧).



وعن المسور بن مخرمة قال: لما طُعن عمرُ جعل يألم، فقال له ابن عباس ـ وكأنه يُجَزِّعُه ـ[٢٨]: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك، لقد صحبتَ رسولَ الله ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون. قال: «أما ما ذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه، فإنما ذاك مَنٌّ مِنَ الله تعالى منَّ به عليَّ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه، فإنما ذاك مَنٌّ مِنَ الله جل ذكره منَّ به عليّ، وأما ما ترى من جزعي؛ فهو من أجلك وأجل أصحابك[٢٩]، والله لو أن لي طِلاعَ الأرض ذهباً، لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه»[٣٠].

الرابع: أن العبد لا يأمن على نفسه الفتنة.

فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب رجل واحد يصرّفه حيث**

(٢٨) أي: يُزيل جزعه. فهي من ألفاظ الأضداد.

(٢٩) لأنه تولّى الخلافة ويخشى أن يكون قد قصّر في حقّها. وهذا من عظيم ورعه وخشيته وعلمه بالله تعالى.

(٣٠) البخاري (٣٦٩٢).



يشاء»[31] ومن دعائه ﷺ: «اللهم مصرّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[32].

وعن جبير بن نفير قال: دخلت على أبي الدرداء منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد فجعل يتعوذ بالله عز وجل من النفاق. فلما انصرف قلت له: غفر الله لك يا أبا الدرداء، ما أنت والنفاق؟! ما شأنك وما شأن النفاق؟! فقال: «اللهم غُفْرًا ـ ثلاثًا ـ لا يأمن البلاءَ من يأمن البلاء، والله إن الرجل ليُفتن في ساعة واحدة فينقلب عن دينه»[33].

وقال مطرف الشخّير: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا، أحب إلي من أبيت قائمًا فأصبح مُعجبًا»[34]. فوجلُ المذنبين التائبين أحب إلى الله تعالى من زجل المسبحين المُدلّين.

عاشرًا: خشية الله في السر والعلانية:

وهو من أجلّ وأجلى صفات أهل الإيمان، قال جل ذكره: "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى

---

(٣١) مسلم (٢٦٥٤).
(٣٢) مسلم (٢٦٥٤).
(٣٣) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي ص (٦٩) رقم (٧٤) وصحح المحقق إسناده.
(٣٤) الزهد لابن المبارك (١٥١).





ربهم يتوكلون) وقال: ﴿وبشر المخبتين. الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾.

وخشيته سبحانه من أعظم آيات الافتقار والفاقة إليه سبحانه، وحالُه: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾، وقال سبحانه: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ [السجدة: ١٦] فهو بين خوف ورجاء وحب لله تعالى.

وشرط الخشية الصادقة أن تكون بالغيب لأن القلب لا يتعلق إلا بالله، ولا يلتفت إلى ما سواه، ويعلم أنه يعلم السر والنجوى، قال تعالى: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير) وقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب لوهم من الساعة مشفقون﴾ وقال: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ [ق: ٣١ - ٣٣] فربط الخشية بالغيب تنبيه إلى شهود العبد مراقبة ربه جل وعلا، وأنه يخافه بالغيب كما يخشاه في الشهادة، وليس ممن إذا خلا بمحارم الله انتهكها!

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.. » وذكر منهم: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[٣٥].

---

(٣٥) البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) وهو بتمامه: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:



وكان علي بن الحسين رحمه الله ورضي عن أبيه يُبَخَّلُ، فلما مات وجدوا أنه يعول أهلَ مئة بيت في المدينة، «**ورجل تصدّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**». فعلموا أنه من أهل الصدقات العظيمة في السرّ.

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة قال العفيف عن الفاحشة وقد تمكن منها: «فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنّا»(٣٦) فالخشية سوط يذود به المؤمن قلبه عن مواطن الهلكة وأودية الردى.

وقال عبيد الله بن جعفر: «ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله»(٣٧).

الحادية عشرة: تعظيم الأمر والنهي:

فغاية العبودية: التسليم والانقياد للآمر الناهي محبة وتذلّلًا، قال سبحانه: ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾ وقال: ﴿ذلك

الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه». والسياق للبخاري. وانقلبت جملة «حتى لا تعلم.. » عند مسلم، فوقعت هكذا: «حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله».

(٣٦) البخاري (٣٤٦٥).

(٣٧) سير أعلام النبلاء (٦/٩).



﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: ٣٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب تعالى الله وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتّب على ذلك مقتضاه.

وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. وما أكثر ما يُقدّم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحابّ، ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها.

وسنّةُ الله تعالى فيمن هذا شأنه أن يُنكّد عليه محابّه(٣٨)، وينغصها عليه، ولا ينال شيئًا منها إلا بنكد وتنغيص، جزاء له على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى.

وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئًا سواه عُذِّب به ولا بدّ، وأن من خاف غيره سلّط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه، ومن أرضى غيره

(٣٨) قال تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في كبد) [البلد: ٤]، فنعيم الدنيا منغص لأجل ألا يركن إليها المؤمن. ومن عصى الله تعالى لأجل مخلوق نغّص الله تعالى عليه ذلك المخلوق وأفسده عليه جزاءً وفاقًا. ومن أحب غير الله عُذب به.



بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذمّ من لا يُعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا﴾ [نوح: ١٣] قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة. وما أحسن ما قال شيخ الاسلام في تعظيم الأمر والنهي: «هو أن لا يُعارَضا بترخّص جافٍ، ولا يُعرّضا لتشديد غالٍ، ولا يُحملا على علّة تُوهن الانقياد».

ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه، فالمؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه. وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتّباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالًّا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والصدق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر، فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادرًا عن

تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمر والناهي.

فعلامة التعظيم للأوامر رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحيّنها في أوقاتها والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم أنه إن تُقُبّلت منه صلاته منفردًا فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا، ولو أن رجلًا يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون دينارًا لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكُلُّ ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف وما شاء الله تعالى؟!

فإذا فوّت العبد عليه هذا الربح قطعًا، وهو باردُ القلب، فارغٌ من هذه المصيبة، غيرُ مرتاع لها؛ فهذا من ضعف تعظيم أمر الله تعالى في قلبه، وكذلك إذا فاته أول وقتها الذي هو رضوان الله تعالى، أو فاته الصفّ الأول الذي يصلي الله وملائكته على ميامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قُرعةً، وكذلك فوّت الجمع الكثير الذي تضاعف الصلاة بكثرته وقلته، فكلما كثر الجمع كان أحب إلى الله عز وجل، وكلما بعدت الخُطا كانت خطوة تحط خطيئة وأخرى ترفع درجة، وكذلك فوّت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك

وتعالى الذي هو روحها ولبّها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يُهدي إلى مخلوق مثله عبدًا ميتًا أو جارية ميتة؟! فما ظنُّ هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو من أمير أو غيره؟! فهكذا سواء الصلاة الخالية عن الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله تعالى فيها بمنزلة هذا العبد ـ أو الأمة ـ الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ إنه قال: «**إن العبد ليصلي الصلاة وما كتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها حتى بلغ عشرها**»[٣٩].

وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها، وهذا العمل الكامل هو الذي يكفر السيئات تكفيرًا كاملًا، والناقص بحسبه. وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه.

---

(٣٩) مسند أبي يعلى (١٦٢٨) وحسنه الألباني في تخريج الإيمان لابن تيمية (٢٩/١).

وأما علامات تعظيم المناهي: فالحرص على التباعد من مظانّها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، وأن يجانب الفضول من المباحات خشية الوقوع في المكروه، ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسّنها ويدعو إليها ويتهاون بها ولا يبالي ما ركب منها، فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

ومن علامات تعظيم النهي: أن يغضبَ للهِ عز وجل إذا انتُهكت محارمُه، وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عُصى اللهُ تعالى في أرضه.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم على المنهج الوسط. مثال ذلك: أن السنّة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر، فالترخص الجافي أن يُبرِدَ إلى فوات الوقت أو مقاربة خروجه، فيكون مترخّصًا جافيًا، وحِكمة هذه الرخصة أنّ الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور، ويفعل العبادة بتكره وضجر، فمن حكمة الشارع ﷺ أن أمرهم بتأخيرها حتى ينكسر الحر، فيصلي العبد بقلب حاضر، ويحصل له مقصود

الصلاة من الخشوع والإقبال على الله تعالى.

ومن هذا نهيه ﷺ أن يصليَ بحضرة الطعام أو عند مدافعة البول والغائط لتعلّق قلبه من ذلك بما يشوّش عليه مقصود الصلاة، ولا يحصل المراد منها. فمن فقه الرجل في عبادته أن يُقبل على شغله فيعمله، ثم يفرغ قلبه للصلاة فيقوم فيها وقد فرغ قلبه لله تعالى ونصب وجهه له وأقبل بكليته عليه، فركعتان من هذه الصلاة يغفر للمصلي بهما ما تقدم من ذنبه.

والمقصود: أن لا يترخص ترخّصًا جافيًا، ومن ذلك أنه أرخص للمسافر في الجمع بين الصلاتين عند العذر، وتعذّر فعل كل صلاة في وقتها لمواصلة السير وتعذر النزول أو تعسيره عليه، فإذا قام في المنزل اليومين والثلاثة أو أقام اليوم فجمعُه بين الصلاتين لا مُوجب له لتمكّنه من فعل كل صلاة في وقتها من غير مشقة، فالجمع ليس سنّة راتبة كما يعتقد أكثر المسافرين أن سنة السفر الجمع سواء وجد عذر أو لم يوجد، بل الجمع رخصةٌ والقصر سنة راتبة، فسنة المسافر قصر الرباعية، سواء كان له عذر أو لم يكن، وأما جمعه بين الصلاتين فحاجة ورخصة، فهذا لونٌ وهذا لونٌ.

ومن هذا أن الشّبع في الأكل رخصة غير محرمة، فلا ينبغي أن يجفوَ



العبدُ فيها حتى يصل به الشبع إلى حد التخمة والامتلاء، فيتطلب ما يصرف به الطعام، فيكون همّه بطنه قبل الأكل وبعده! بل ينبغي للعبد أن يجوع ويشبع، ويدع الطعام وهو يشتهيه، وميزان ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(٤٠) ولا يجعل الثلاثة الأثلاث كلها للطعام وحده.

وأما تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي فهو كمن يتوسوس في الوضوء متغاليًا فيه حتى يفوت الوقت. أو يُردّد تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة، أو يكاد تفوته الركعة. أو يتشدد في الورع الغالي حتى لا يأكل شيئًا من طعام عامة المسلمين خشية دخول الشبهات عليه. ولقد دخل هذا الورع الفاسد على بعض العبّاد الذين نقص حظهم من العلم حتى امتنع أن يأكل شيئًا من بلاد الإسلام، وكان يتقوّت بما يحمل إليه من بلاد النصارى، ويبعث بالقصد لتحصيل ذلك! فأوقعه الجهل المفرط والغلو الزائد في إساءة الظن بالمسلمين وحسن الظن بالنصارى، نعوذ بالله من الخذلان.

فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يُعارضا بترخّص جافٍ، ولا يعرّضا

---

(٤٠) خرّجه ابن ماجه بسنده عن المقدام بن معدي كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس» سنن ابن ماجه (٣٣٤٩) وصححه الأرناؤوط بطرقه.





لتشديد غالٍ، فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عز وجل بسالكه.

وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما افراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد، فإن وجد فيه فتورًا وتوانيًا وترخيصًا، أخذه من هذه الخطة فثبّطه وأقعده وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة.

وإن وجد عنده حذرًا وجدًّا وتشميرًا ونهضة وأيس أن يأخذه من هذا الباب؛ أمره بالاجتهاد الزائد، وسوّل له أن هذا لا يكفيك، وهمّتك فوق هذا، وينبغي لك أن تزيد على العامِلين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضؤا للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدّي. فيحمله على الغلوّ والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه.

ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المسقيم: هذا بأن لا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه. وقد فُتن بهذا أكثر الخلق، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان، وقوة على محاربته،





ولزوم الوسط. والله المستعان.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل، بل يسلّم لأمر الله تعالى وحُكمه ممتثلًا ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر. فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد والتسليم، ولا يحمله ذلك على الانسلاخ منه وتركه، كما حمل ذلك كثيرًا من زنادقة الفقراء والمنتسبين إلى التصوف، فإن الله عز وجل شرع الصلوات الخمس إقامة لذكره، واستعمالًا للقلب والجوارح واللسان في العبودية، وإعطاء كل منها قسطه من العبودية التي هي المقصود بخلق العبد، فوضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية.

فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الآدمي واختاره من بين سائر البرية، وجعل قلبه محلّ كنوزه من الإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والحياء والتعظيم والمراقبة، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله، وهو النظر إلى وجهه والفوز برضوانه ومجاورته في جنته.

وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه، فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه، فتميل نفسه معه لأنه يدخل عليها بما تحب.



فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر، وأمدّه بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه، فأرسل إليه رسوله، وأنزل عليه كتابه، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه، وبيّن له ما في طاعة العدو من الهلاك. فهذا يلمّ به مرّة، وهذا مرّة، والمنصورُ من نصره الله عز وجل، والمحفوظ من حفظه الله تعالى.

وجعل له مقابل نفسه الأمارة نفسًا مطمئنة، إذا أمرته النفس الأمارة بالسوء نهته عنه النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمارة عن الخير أمرته به النفس المطمئنة، فهو يطيع هذه مرّة، وهذه مرّة، وهو للغالب منهما، وربما انقهرت إحداهما بالكليّة قهراً لا تقوم معه أبدًا.

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نورًا وبصيرة وعقلًا يردّه عن الذهاب مع الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة. فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور: الحذرَ الحذر، فإن المهالك والمتالف بين يديك، وأنت صيد الحرامية وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل.

فهو يطيع الناصح مرّة فيبن له رشده ونصحه، ويمشي خلف دليل الهوى مرّة فيقطع عليه الطريق ويؤخذ ماله ويسلب ثيابه، فيقول: تُرى من أين



أُتيت؟!

والعجب أنه يعلم من أين أُتيَ، ويعرف الطريق التي قطعت عليه وأُخذ فيها، ويأبى إلا سلوكها، لأن دليلها قد تمكّن منه، وتحكم فيه، وقويَ عليه، ولو أضعفه بالمخالفة له، وزجره إذا دعاه، وحاربه إذا أراد أخذه، لم يتمكن منه، ولكن هو مكنه من نفسه، وهو أعطاه يده، فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه فيباشره، ثم يسومه سوء العذاب، فهو يستغيث فلا يُغاث.

فهكذا يستأسرُ للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة، ثم يطلب الخلاص فيعجز عنه، فلمّا أن بُلي العبدُ بما بلي به، أعين بالعساكر والعُدد والحصون وقيل له: قاتل عدوّك وجاهده، فهذه الجنود خُذْ منها ما شئت، وهذه الحصون تحصن بأي حصن شئت منها، ورابط إلى الموت فالأمر قريب، ومدة المرابطة يسيرة جدًّا. فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله فنقلوك إلى داره، واسترحت من هذا الجهاد، وفُرِّق بينك وبين عدوك، وأُطلقت في دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت، وسُجِن عدوُّك في أصعب الحبوس وأنت تراه. فالسجن الذي كان يريد أن يودعك فيه قد أُدخله وأغلقت عليه أبوابه، وأيس من الرَّوح والفرج، وأنت فيما اشتهت نفسك وقرت عينك، جزاء على صبرك في تلك المدة اليسيرة، ولزومك



الثغر للرباط، وما كانت إلا ساعة ثم انقضت، وكأن الشدة لم تكن.

فإن ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه؛ فليتدبر قوله عز وجل: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة﴾ وقوله عز وجل: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ وقوله عز وجل: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾ وقوله عز وجل: ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يومًا فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال وذلك عند الغروب قال: «**إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**»[٤١].

فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث، وليعلم أي شيء حصل له من هذا الوقت الذي قد بقي في الدنيا بأسرها؛ ليعلم أنه في غرور وأضغاث أحلام، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس

---

(٤١) أحمد (٢١/٢٤٠). وقال ابن حجر في الأمالي المطلقة (١٩٩): «حسن، رجاله موثقون، وله شاهد».





لا يساوي شيئًا، ولو طلب الله تعالى والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ موفورًا وأكمل منه. كما في بعض الآثار: «ابن آدم بعِ الدنيا بالآخرة تربحْهما جميعًا، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرْهما جميعًا». وقال بعض السلف: «ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وإنك لنصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الدنيا، أضعت نصيبك من الآخرة، وكنت من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة، فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظامًا»»[٤٢].

الثانية عشرة من علامات الافتقار إلى الله تعالى: أن يعمل على موافقة الله في الصبر والرضى والتوكل والإنابة.

«فهو عاملٌ على مراد الله منه، لا على موافقة هواه، وهو تحصيل مراده من الله. فالفقيرُ خالصٌ بكليته لله سبحانه، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظّ ونصيب، منشغل بالله عما سواه، وبأمره عن هواه، وبحُسن اختياره له عن اختياره لنفسه، فهو في واد والناس في واد.

خاضع، متواضع، سليم القلب، سلس القياد للحق، سريع القلب إلى ذكر الله، بريء من الدعاوى لا يدّعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله. زاهدٌ في كل ما سوى الله، راغب في كل ما يقرب إلى الله، قريب من

---

(٤٢) الوابل الصيب (٢٤ - ٣٩) باختصار.



الناس، أبعدُ شيء منهم، يأنسُ بما يستوحشون منه، ويستوحش مما يأنسون به، متفرّد في طريق طلبه، لا تقيده الرسوم، ولا تملكه العوائد، ولا يفرح بموجود، لا يأسف على مفقود.

من جالسه قرت عينه به، ومن رآه ذكّرته رؤيتُه بالله سبحانه. قد حَمَل كَلَّهُ ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم، وكفّ أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته، وسبَّل لهم عِرضه ونفسه، لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز. لا يدخل فيما لا يعنيه، ولا يبخل بما لا ينقصه.

وصفُهُ الصدق والعفة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال. لا يتوقّع لما يبذله للناس عوضًا منهم ولا مدحة. لا يعاتِب ولا يخاصم ولا يطالب، ولا يرى له على أحد حقًّا، ولا يرى له على أحد فضلًا.

مقبلٌ على شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه، مسافر في ليله ونهاره ويقظته ومنامه، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه.

قد رُفع له عَلَمُ الحب فشمّر إليه، وناداه داعي الاشتياق فأقبل بكليته عليه. أجاب منادي المحبة إذ دعاه: حي على الفلاح، ووصل السُّرى في بيداء الطلب، فحمد عند الوصول سُرَاه، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.



بّ على جنّات عدن فإنها ... منازلُكَ الأولى وفيها المخيمُ
كننا سبيُ العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلّمُ
ب على روضاتها وخيامها ... وحيّ على عيش بها ليس يُسأمُ
ب على يوم المزيد وموعد الـ ... ـمحُبّين طوبى للذي هو منهمُ
ب على واد بها هو أفيَحٌ ... وتربته من أذفرِ المسك أعظمُ
ـر من نور هناك وفضة ... ومن خالص العِقيانِ لا يتفصّمُ
ي حولها كثبان مسك مقاعدٌ ... لمن دونهم هذا الفخار المعظَّمُ
ن به الرحمنَ جل جلالُه ... كرؤية بدرِ التّمّ[43](44) لا يُتَوَهَّمُ
الشمس صحواً ليس من دون أفْقها ... ضباب ولا غيم هناك يغيّمُ
ا همُ في عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم وتقسمُ
هم بنور ساطع قد بدا لهم ... فقيل ارفعوا أبصاركم فإذا همُ
م من فوقهم وهو قائل ... سلام عليكم طبتم وسلِمْتُمُ

---

(٤٣) هل تعلم أن في الجنة نعيم ليس من جنس نعيم الدنيا، وليس في الدنيا له شبيه أو نظير أو حتى مثل يقارب المعنى، فالجنة فيها فاكهة ونخل ورمان وأنهار وخمر ولبن وقصور وحور... إلخ. ولكنها حوت نعيمًا لا يمكن تخيله ولا مقاربته ولو بالخيال فهو جنس ليس له مسمّى ولا شبيه في الدنيا والدليل على ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين}. البخاري (٤٧٧٩) وأعلى نعيم الجنة رؤية الله تبارك وتعالى.

(٤٤) أي بدر التمام.

عجبًا ما عذرُ من هو مؤمنٌ ... بهذا ولا يسعى له ويقدمُ
رْ إذا ما دام في العمر فسحةٌ ... وعَدْلُك مقبول وصرفُك قيِّمُ
فرحتْ بالوصل نفسٌ مهينةٌ ... ولا فاز قلب بالبطالة ينعمُ
وسارعِ واغتنم ساعة السُّرى ... ففي زمن الإمكان يُسعى ويُغنمِ
مسرعًا فالسير خلفك مسرعٌ ... وهيهات ما منه مفرٌّ ومهزمِ
المنايا أي وادٍ نزلتَه ... عليها قدومٌ أو عليك ستقدَمُ
تك قد عاقتك سعدى فقلبك الـ ... ـمُعَنَّى رهين في يديها مسلَّمُ
ساعدت بالوصل غيرَك فالهوى ... لها منكَ والواشي بها يتنعّمُ
ها وسلِّ النفسَ عنها بجنة ... من الخير في روضاتها الدُّر يبسِمُ
تحتها الأنهار تخفق دائمًا ... وطيرُ الأماني فوقها يترنَّمُ
ذُلِّلَتْ منها القطوفُ فمن يُرِدْ ... جناها ينلْهُ كيف شاء وينعمُ
فُتِحَتْ أبوابُها وتزينت ... لخُطّابها فالحسن فيها مُقَسَّمُ
على أبوابها داعي الهدى ... هلمّوا إلى دار السعادة تغنموا
طاب منها نُزْلُها ومقيلُها ... فطوبى لمن حلّوا بها وتنعموا
غرس الرحمنُ فيها غِراسه ... من الناس، والرحمن بالغرس أعلمُ
كان من غرس الإله فإنه ... سعيد وإلا فالشقا متحتمُ (٤٥)

---

(٤٥) لو قال: فالشقاء مُحَتَّمُ.

مسرعين السير بالله ربكم ... قفوا بي على تلك الربوع وسلّموا
وا محبٍّ قاده الشوق نحوكم ... قضى نحبه فيكم تعيشوا وتسلموا
ى الله رب العالمين قضيةً ... بأنّ الهوى يُعمي القلوب ويُبكِمُ
بكم أصل الهدى ومداره ... عليه وفوز للمحب ومغنمُ
ى عظامُ الصَّبِّ بعد مماته ... وأشواقُه وقفٌ عليه محرَّمُ
أيها القلب الذي ملك الهوى ... أَعِنَّتَه، حتَّامَ هذا التلوُّمُ
تّامَ لا تصحو وقد قرُبَ المدى ... ودُقّت كؤوس السير والناس نُوَّمُ
سوف تصحو حين ينكشف الغطا ... ويبدو لك الأمر الذي كنت تكتمُ
موقدا نارًا لغيرك ضوؤُها ... وحرُّ لظاها بين جنبيك يضرمُ
ا جنى العلم الذي قد غرسته ... وهذا الذي قد كنت ترجوه تُطعَمُ
ا هو الحظ الذي قد رضيتَه ... لنفسك في الدارين لو كنت تفهمُ
ا هو الربح الذي قد كسبته ... لعمرُك لا ربح ولا الأصلُ يسلمُ
ت بشيءٍ لا يضرك بذلُه ... وجُدت بشيء مثله لا يُقوَّمُ(٤٦)
ت نعيمًا لا انقضاء له ولا ... نظيرَ بخسٍ عن قليل سيُعدمُ
ا عكست الأمر إن كنت حازمًا ... ولكن أضعت الحزم إن كنت تعلمُ
دم ما تبني بكفك جاهدًا ... فأنت مدى الأيام تبني وتهدمُ

---

(٤٦) أي بخلت على نفسك بعمارة الآخرة، وجُدتَ بها للدنيا!

د مراد الحق تفنى كميّت وعند مراد النفس تُسْدِي وتُلحِمُ
د خلاف الأمر تحتجُّ بالقضا ظهيرٍ على الرحمن للجبر يزعمُ
تلك النفسَ عن سوء فعلها وتعتِبُ أقدارَ الإله وتظلِمُ
عم معْ هذا بأنكَ عارفٌ كذبتَ يقينًا في الذي أنت تزعمُ
أنت إلا جاهلٌ ثم ظالمٌ وإنك بين الجاهلين مقدَّمُ
كان هذا نُصْحُ عبدٍ لنفسه فمن ذا الذي منه الهدى يُتَعَلَّمُ
مثل هذي الحال قد قال من مضى وأحسنَ فيما قاله المتكلِّمُ:
كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنت تدري فالمصيبةُ أعظمُ
تبصِرُ الدنيا وراء ستورها رأيت خيالًا في منام سيصرمُ
بطيف زار في النوم وانقضى الـ منام وراح الطيفُ والصَّبُّ مغرمُ
ِلّ أرتْهُ الشمسُ عند طلوعها سيقلِصُ في وقت الزوال ويُفصَمُ
نة صيف طاب منها مقيلُها فولّتْ سريعًا والحَرُورُ تضرَّمُ
هَا مَرًّا لا مقرًّا وكن بها غريبًا تعِشْ فيها حميدًا وتسلمُ
ابنَ سبيل قالَ في ظل دوحة وراحَ وخلَّى ظلها يتقسَّمُ
سفرٍ لا يَستقرُّ قرارُهُ إلى أن يرى أوطانَه ويُسَلَّمُ
عجبًا كم مصرعٍ عطَبوا به بنُوها ولكن عن مصارعها عموا
هم بكأس الحب حتى إذا انتشوا سقتهم كؤوس السُّمّ والقومُ قد ظَمُوا

بُ ما في العبد رؤيةُ هذه الـ   عظائمِ منها وهو فيها متيَّمُ
ب من ذا أنَّ أحبابها الأُلى   تُهينُ ولِلأعدا تُراعي وتُكرِمُ
ك برهانٌ على أن قدرَها   جناحُ بعوضٍ أو أدقُّ وألأمُ
سبُك ما قال الرسول ممثّلًا   لها ولدار الخلد والحقُّ يُفهَمُ
يُدخِل الإنسانُ في اليم إصبعًا   وينزعها منه فما ذاك يغنمُ
ليت شعري هل أبيتن ليلة   على حذر منها وأمريَ محكمُ
أَرِدَنْ ماءَ الحياة وأرتوي   على ظمأٍ من حوضه وهو مُفْعَمُ
تبدوَنْ أعلامُهم بعدما سَفَت   عليها السوافي تستبينُ وتُعلَمُ
أفرشَنْ خدِّي ثرى عتباتهم   خضوعاً لهم كيما يِرقُّوا ويرحموا
أرينّ نفسي طريحًا ببابهم   وطيرُ أماني الحبِّ فوقي تُحوِّمُ
أسفا تفنى الحياةُ وتنقضي   وعتبكُمُ باقٍ، بقيتُم وعِشتمُ
منكمُ بدٌّ ولا عنكمُ غنًى   وماليَ من صبر فأسلوَ عنكمُ
شاء فليغضب سواكمُ فلا إذًا   إذا كنتمُ عن عبدكمْ قد رضيتمُ
بي اصطباري في رضاكم حميدةٌ   ولكنها عنكم عقابٌ ومغرمُ
أنا بالشاكي لما ترتضونه   ولكنّني أرضى به وأسلّمُ
سبي انتسابي من بعيد إليكم   وذلك حظٌّ مثلُه يُتَيَمَّمُ
قيل هذا عبدهم ومُحبّهم   تهلّلَ بِشرًا ضاحكًا يتبسَّمُ

هو قد أبدى الضراعة قائلًا   لكم بلسان الحال والحالُ يُعلمُ
تَنا عطفًا علينا فإننا   بنا ظمأٌ والمورد العذب أنتمُ
ساهيًا في غمرة الجهل والهوى   صريعَ الأماني عن قليل ستندمُ
قد دنا الوقت الذي ليس بعده   سوى جنة أو حرّ نار تضرَّمُ
سنَّةِ الغرّاء كن متمسكًا   هي العروة الوثقى التي ليس تُفصمُ
ك بها مسك البخيل بماله   وعَضَّ عليها بالنواجذ تَسلمُ
ك مما أحدث الناس بعدها   فمرتعُ هاتيكَ الحوادث أوخَمُ
ءْ جوابًا عندما تسمع الندا   من الله يوم العرض ماذا أجبتمُ
رُسْلي لما أتوكم فمن يجب   سواهم سيخزى عند ذاك ويندمُ
ذ من تقى الرحمن أسبغَ جُنَّةً   ليومٍ به تبدو عيانًا جهنمُ
صب ذاك الجسرُ من فوق متنها   فهاوٍ ومخدوشٌ وناجِ مسلَّمُ
تي إله العالمين لوعده   فيفصِلُ ما بين العباد ويَحكُمُ
خذ للمظلوم إذ ذاك حقَّه   فيا ويحِ من قد كان للخلق يظلمُ
شر ديوان الحساب وتوضع الـ   موازينُ بالقسط الذي ليس يَظلمُ
مجرمٌ يخشى هناك ظلامةً   ولا محسنٌ من أجره الذرَّ يُهضَمُ
هدُ أعضاء المسيء بما جنى   لذاك على فيه المهيمن يختمُ
ليت شعري كيف حالُك عندما   تَطايرُ كُتْبَ العالمين وتُقسَمُ

ذ باليمنى كتابك أم ترى بيسراك خلف الظهر منك يُسلَّمُ

أ فيه كل شيء عملتَه فيُشرق منك الوجه أو هو يُظلِمُ

ب كتابي هاؤم اقرؤوه لي يُبشِّرُ بالجنات حقًّا ويُعلِمُ

تكن الأخرى فإنك قائلٌ ألا ليتني لم أوتَهُ فهو مُغرِمُ

والذي شقَّ القلوب وأودع الـ محبةَ فيها حيثُ لا تتصرَّمُ

لها قلبَ المحبِّ وإنه ليضعفُ عن حمل القميص ويألَمُ

ها حتى استكانت لصولة الـ محبة لا تلوي ولا تتلعثمُ

ل فيها أنفسًا دون ذُلّها حياضُ المنايا فوقها هي حُوَّمُ

فاز أقوامٌ وحازوا مرابحًا بتركهمُ الدنيا وَالاقبال منهمُ

ربِّهمْ طولَ الحياة وحبِّهم على نهجِ ما قد سَنَّهُ فهمُ هُمُ(٤٧)

وبالله التوفيق، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على خير العالمين محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان.

إبراهيم الدميجي

١٦/ ٤/ ١٤٤٥

---

(٤٧) طريق الهجرتين: (١/١٠٥ - ١١٥) مختصرًا.



aldumaiji@gmail.com





المحتويات

